MOKA
ليالي فندقية
غزل

الليلة الأولى بين البداية والنهاية

الطابق الأول، الغرفة رقم أربعة عشر

بعد غروب قرص الشمس توشح الظلام مُلْتَحِفًا بستار من الأمطار الثقيلة، جلست بصمت، أتأمل قطرات المطر على زجاج نافذتي القاتمة، عيني تتابع قطرة وحيدة تهبط ببطء على الزجاج، قطع تأملي وجود طيف يصعب التعرف عليه بسبب المسافة الكبيرة التي بيننا، رغمًا عني تعلق نظري به، فقد كان الناس بالشوارع يركضون حتى يصلوا لبيوتهم في أسرع وقت ممكن، بينما هذا الغريب يسير ببطء شديد، شعرت وكأنه طفل يتعلم السير للمرة الأولى، وبدت تلك الفكرة طريفة، ولكن على صعيد آخر بدا فاقدًا لوطنه أو ربما متحير، تفاجأت عندما وجدته يجلس على الرصيف تحت الأمطار الغزيرة، شعرت بأنه ليس في كامل قواه العقلية؛ فكيف لشخص عاقل أن يجلس تحت تلك الأمطار في هذا البرد القارص؟

انتفضت على صوت الرعد، وبعد عدة لحظات اشتد المطر، تطلعت للسماء قليلًا، كانت الغيوم السوداء تغلفها؛ فلم أتمكن من رؤية النجوم أو القمر، وجهت نظري نحو الشارع مرة أخرى متوقعة أن ذلك الطيف المجهول قد رحل، ولشدة دهشتي وجدته كما هو لم يتحرك، كان ينظر إلى يمينه؛ فنظرت بدوري لليمين بدافع الفضول، ولكنني لم أستطع تحديد ما ينظر إليه، انتظرت قليلًا على أمل أن أرى شيئًا، ولكن لم أرى سوى متجر متهالك كان يباع به الكتب قديمًا؛ لذا عدت لأوجه نظري لذلك المجهول، ولكني صعقت وعدت للخلف بضعة خطوات، فقد كان هذا المجهول ينظر باتجاهي، مما أثار تعجبي، أيمكنه أن يراني والمسافة بيننا ليست بالهينة؟

ولكني تذكرت أنني أغلقت جميع الأضواء مسبقًا؛ مما يجعل من بالخارج يصعب رؤية من بالداخل، افترضت أنه يتأمل الشجيرات القصيرة التي تحيط بالمبنى، فقد اعترف كل من رآها أنها تجذب الأعين نحوها، وتذكرت ادعاء جارتي العجوز بأن تلك الشجيرات مسكونة، لطالما ضحكت على هذا الادعاء، ولكن مع تواجد هذا المجهول وتأمله لها شعرت أن ربما صديقتي العجوز على صواب.

كلما مر الوقت كانت الأمطار تزداد قوة ويزداد معها تحيري وفضولي لمعرفة من هذا المجهول، ربما هو أحد الفقراء الذين ليس لديهم بيت، ولكني لم أرى يومًا فقيرًا يتجول تحت المطر وكأنه يتجول على إحدى شواطئ في شهر يونيو، إن هذا المجهول يشكل لغزًا يصعب على أن أجد له حَلًا، وربما الأمر بسيط وأنا من تعقد الأمور بفلسفات سخيفة غير صحيحة، شعرت أن تواجدي لوقت أكثر في مواجهة هذا المجهول يتأثر على صحة عقلي؛ لذا نهضت وأغلقت الستائر معلنة انتهاء لقائي مع هذا المجهول كما آمل.

بعد عشر دقائق كنت قد وصلت لغرفة الاستقبال بالفندق وأنا ألعن نفسي مئات المرات، قد قرأت بالروايات أن القلب يدفع الإنسان لارتكاب الحماقات واليوم أتيت أنا لأكسر هذه القاعدة بعقلي الأشبه بقشرة البندق الذي لم يتركني وشأني حتى استسلمت لرغباته.

بالرغم أنه يمنع على المقيمين بالفندق مغادرته بعد موعد العشاء لكن صداقتي مع مديرته أعطاني حصانة. كنت قد ارتديت معطفي الأبيض فوق ملابسي البيتية، لا بأس بهذا فلن يراني أحد وحتى لن يهتم أحد لغريبة الأطوار تتسكع تحت المطر بملابس بيتية.

فتحت مظلتي ما إن خرجت إلى الشارع وعيناي مسلطة على ذلك الطيف الغريب الذي لم يعد يفصل بيني وبينه سوى ذلك الشارع ورغم ذلك عجزت عن الكشف عن ملامحه؛ لذلك عبرت الشارع ووقفت أمامه مباشرةً منتظرة منه أن يرفع نظره إلي؛ ليعرف من الذي يعكر وحدته ويتطفل، ولكنه لم يتحرك قيد أنملة، أهو أعمى؟

قربت المظلة قليلًا باتجاهه لتحمي كلينا من المطر، وما زال الطيف ساكنًا، رفعت رأسي لأبعد نظري عنه متسائلة بداخلي هل يمكن أن يكون هذا الطيف تمثالًا؟ أيكون إحدى نظريات مالك الفندق الغريبة؟ ؛ فهو لديه نظريات غريبة طبق عدة منها على الفندق فكاد يحوله لبيت مسكون، تشتت أفكاري ولم أستطع الوصول لإجابة، وبنفس الوقت لم أرغب بأن أركع أمامه لأتحقق من كونه شخصًا من لحم ودم أم لا؛ فهذا سيضعني بموضع الشكوك، ولكن أليس وقوفي أمامه وأزاحه المطر عنه بمظلتي يجعله يضعني بموضع الشكوك؟

أدركت مؤخرًا مدى غبائي لإقدامي على فعل ما فعلته تَوًّا، حتى أنني لم أستطع أن أنظر إليه من فداحة فعلتي؛ لذا قررت أن أرحل، وقبل أن أتحرك إنشًا أعلن الطيف عن إنسانيته ورفع رأسه لينظر إلي وما أن التقت أعيننا صعقت وعدت للخلف خطوتين تزامنًا مع صوت الرعد المرعب، ولوهلة شعرت بالأرض تهتز أسفل قدمي، لقد كان ذلك الطيف المهموم مالك الفندق!

الليلة الثانية بداية النهاية

الطابق السفلي، غرفة الاستقبال

نظرت حولي بشرود، أتأمل المحيط حولي وكل ما أشعر به هو الغُربة، كغجري بلا وطن، يبحث عن أرض تأويه من عدوانية البشر، واليوم قررت تلك الأرض التخلي عني، تسرب إلى روحي ستار قاتم من اللامبالاة عندما انتهيت من إتمام جميع تلك الأوراق والمعاملات الغبية الخاصة بالبيع، ها قد بيع الفندق لأحد المستبدين الذين لم أُكلف نفسي العناء بحفظ أسمائهم، ينوي المشتري أن يحول الفندق إلى مطعم فاخر لأصحاب الطبقة المخملية؛ فطرازه القديم سيجذب الكثيرين إليه، سيدمره لا محال، ذلك الإرث الذي تناقلته العائلات جيلًا بعد جيل سيدمر وعلي يد أحد أصحاب المال التافهين، العديد من المشاعر اليائسة اجتاحتني الحزن والمرارة مع الكثير من العجز والغضب، الغضب من نفسي لعدم تمكني من الحفاظ عليه، لوقوعي بنفس الفخ الذي وقع به المالك السابق، كم كرهت نفسي واحتقرتها، لم أستطع النظر لنفسي بالمرآة الضخمة المعلقة بغرفة الاستقبال، أقسم أنني لو رأيت وجهي في تلك اللحظة لأوسعته ضربًا كمجنون فقد عقله، أهذا ما شعر به المالك السابق وهو يبيعه لي؟ لم أستطع الجزم.

تركت الفندق بأكمله وسرت في الشوارع بلا هدى مطأطأ الرأس مشغول البال، تسرب لذاكرتي اليوم الذي اشتريت به هذا الفندق، كانت تبلغ سعادتي مبلغ لم تصل إليه إلا في هذا اليوم، كم من مرة شاهدته من شرفتي المواجهة له، كم رغبت في امتلاك فندقًا مثله، لم أتصور يومًا أنني سأمتلك هذا الفندق بالسرعة والسلاسة التي تمت بها البيعة، ولسوء حظي كانت نفس السرعة والسلاسة التي سلب بها مني عنوة، تذكرت المالك السابق، وكيف كان يبدو هو وزوجته في أثناء إتمام العقود، كان يبدو أكثر حزنًا ويأسًا عني؛ فهو قد عاش به سنوات عمره الطويلة منذ نعومة أظافره حتى تمكن من إدارته ومن إدارته لامتلاكه، أدركت اليوم شعوره أنا الذي جرحت مشاعره وصعبت عليه المهمة بسعادتي المبالغة التي كانت تفيض على كل شيء، لم أكن لألومه إن علمت أنه كرهني له كل الحق بهذا.

كانت الشمس قد غربت منذ أكثر من ساعة وكنت قد أخبرت العاملين بالفندق أن يعلموا المقيمين به أن الفندق تم بيعه وأن أمامهم شهر ليجزموا أمتعتهم ويجدوا مكانًا آخر ليقيموا به.

أكملت تسكعي بالشوارع دون معرفة حتى إلى أين سأصل، وبعد المزيد والمزيد من السير والأفكار التي لم ترأف بي توقفت للحظة وتأملت المكان حولي تبين أنني أقف أمام الفندق مباشرةً، وكأن القدر اتحد مع قدماي ليسخروا مني، كان المطر يهطل بغزارة، أصبحت ثيابي مبللة وبدأ البرد يتسرب بخبث إلى عظامي، لم أهتم وجلست على الرصيف وكأني أتحدى المطر، مر الوقت ببطء كريه، وشعوري بالكره تجاه نفسي يزداد مع كل ثانية تمر، رغمًا عني رفعت نظري للفندق، أتأمله للمرة الأخيرة؛ فقد قررت بيع شقتي وترك المدينة بأكملها، لن أحتمل رؤية دماره بسببي، لم أشعر بالوقت وهو يمر ونظري لا يزال معلقًا به، عندما استيقظت من شرودي عُدت لأنظر للحصى الملقى على الأرض، أعبث بإحداهم قليلًا بقدمي، وأنظر إلى المطر الذي يسقط عليهم محدثًا صوتًا متتابع في نغمة رتيبة، شعرت بحركة خفيفة بالشارع، رفعت نظري لأرى أحدهم يخرج من الفندق، تساءلت بتعجب ألم ينقضي وقت العشاء منذ زمن؟

عدت للعبث بالحصى، وأنا أشعر باقتراب ذلك الشخص أكثر وأكثر، ما إن عبر الشارع حتى وقف أمامي مباشرةً، لم ينتابني الفضول لمعرفة من هو أو ما الذي يريده مني، أكملت عبثي بالحصى بعدم اهتمام، لم يمر الكثير الوقت حتى توقف المطر عن الهطول أو هذا ما ظننته؛ فما زلت أرى المطر يهطل بغزارة يبلل الشجيرات المحيطة بالفندق، عندها علمت أن رفيقي المجهول يشاركني مظلته كتعبير عن الاستياء من تجاهلي له، ورغم ذلك التذمر الصريح من الجهة الأخرى إلا أنني لم أرفع رأسي إلا بعد مرور القليل من الوقت، وعندما التقت أعيننا تبين أنني لا يمكنني وصف الماثل أمامي ب هذا بل هذه؛ فقد كانت فتاة، بينما على الجهة الأخرى جحظت عيناها بدهشة وتراجعت للخلف خطوتين أو ثلاث، وفي الحال تذكر أنني رأيتها عدة مرات في غرفة الاستقبال، كانت إحدى المقيمين، ربما كانت مقيمة دائمة لا أذكر، بعد أن استعادت رباطة جأشها عادت راكضة للفندق، بدا التحير واضحًا على ملامحه، ربما لم يخبرها أحدهم بالمستجدات، ملئت صدري بالهواء وزفرته بقلة حيلة، وعدت لتأمل الفندق، واليأس عاد للتسرب إلي مجددًا؛ تنهدت بحزن وعقلي يردد إنها البداية، بداية النهاية

- ليالي فندقية آخر الليالي

الليلة الثالثة ما تخلفه النهاية

الطابق الثاني، الغرفة رقم تسعة وعشرون

ما زالت الشوارع رطبة، تحرشت بأنفي رائحة الطين المبلل المنعشة، ملأتني بالحنين، كجندي الحرب الذي عاد بعد سنوات مريرة بأراضي المعركة ويشتم رائحة وطنه للمرة الأولى بعد طول غياب، ولكني قررت تجاهلها؛ فأنا بحاجة للتخلص من ذلك الشعور المؤلم الملقب ب الحنين.

لقد مر الآن شهرًا منذ أول ليلة ممطرة شهدتها المدينة، أمطرت بغرازة أمس، ربما كانت تلك الذروة، ولكن اليوم يبدو أن السحب قررت أن ترأف بحالنا وتكف عن الإمطار، ما زالت الشوارع مليئة بالمياه، متوزعة على مناطق مختلفة مكونة برك صغيرة، جلست أمام المرآة أمشط شعري الفضي بشرود، نظرت للشارع من النافذة التي على يساري بعدم اهتمام، فأحوال الشوارع اليوم هي أخر همي، وفي نفس اللحظة عادت رائحة الطين الرطب للدلوف عنوة إلى أنفي كأنها مستاءة من تجاهلي لها، ورغم تلك الدعوة المغرية لم يتحرك إنش واحد من وجهي، أمن المفترض أن ابتسم أم تظل تعابير وجهي متخشبة كما هي؟

صوت صغير بداخلي أخبرني أن أُحرر وجهي قليلًا وابتسم، ولكنه اختفى بلمح البصر.

صدح من الراديو إحدى الأغاني الفرنسية القديمة ولحسن حظي كانت المفضلة لدي، استمعت إليها بجميع حواسي غارقة بعالم وردي وحدها تلك الأغنية تتمكن من صنعه، أغمضت عيناي وغرقت بذكرياتي، ذكرى دخولي الأول لهذا الفندق، عندما كنت فتاة صغيرة جاهلة، والسنوات التي تلتها، أيام الحزن والسعادة، الخيبة والرجاء، جميعهم كان هذا الفندق الشاهد الوحيد عليهم، أو بالأحرى الشاهد الوحيد الذي ما زال قائمًا حتى اليوم.

ابتسمت بسخرية عندما جذب انتباهي صورة ابني الوحيد، رغم إصراري على بيع منزلي واستكمال حياتي بهذا الفندق إلا أنني توقعت منه بعض الإلحاح الذي لم يكلف نفسه العناء حتى بالتفكير به، والآن بعد أن أصبحت بلا مأوى هل فكر بأن يلح على أم أن الماضي سيعيد نفسه؟

لا أقصد بأني ضعيفة، أنا أقوى مما يتخيل البعض؛ فتبين لي الآن أن الحروب التي خضتها سابقًا لم تكن بهذا السوء، فقد جعلتني بالقوة الكافية التي تجعلني لا أحتاج مساعدة أحدهم، ولكن كل ما في الأمر هو الوحدة، رغم أنني من سعيت إليها كثيرًا، ولكن الإنسان يحتاج من وقت إلى آخر إلى شخص يمده بالمشاعر التي تؤنس وحدته، خصوصًا عندما يكون هذا الشخص الوحيد الذي يمكنك هدم جميع حصون وحدتك ليعبر داخلك بسلاسة.

كم أن التسول شعور مؤلم، لا يؤلم الكبرياء فقط بل يؤلم القلب أيضًا، خاصةً تسول المشاعر من شخص شُح لا يرغب في وهب مشاعره لأي أحد، كم سيكون أمرًا مربحًا إن عمل أحدهم في وهب المشاعر للآخرين مقابل المال، مهلًا أليس هذا ما يفعله الأطباء النفسيين؟ ربما. .

بعدما انتهيت من التمشيط، وضعت الفرشاة على الطاولة الصغيرة وعقدت خصلاتي على هيئة كعكة، ثم ارتديت فوقه وشاح أسود اللون كبقية ملابسي، وبدأت بإعداد أغراضي استعدادًا للرحيل.

لقد كنت المقيمة الوحيدة الدائمة بهذا الفندق، حتى أتت فتاة شابة من عدة أعوام وأقامت بالغرفة رقم أربعة عشر، كلما رأيتها تذكرت نفسي عندما كنت في سنها، يالها من فتاة فضولية، أذكر في إحدى الأيام أتت إلي وأخبرتني أنني أُخبئ بجعبتي شيء ثم انصرفت، والجدير بالذكر أنها على حق، فأنا منذ أن أتيت لأُقيم في هذا الفندق بعد بيعي لبيتي كنت أُخبئ بجعبتي سرًا ما؛ فمالك الفندق هذا لا يعلم أن إحدى النزيلات لديه كان زوجها يملك هذا الفندق سابقًا، عندما كنت أُدير هذا الفندق مع زوجي الراحل لم أُعطي وزنًا للمستقبل، الذي كان ينظر إلي بسخرية حاملًا معه أحداث لم تكن بالحسبان؛ فبعد عدة أعوام غرق زوجي بديون لم أعلم مما أتت وازداد الأمر سوءًا يومًا بعد يوم حتى اضطررنا لبيع الفندق.

يا له من قدر ساخر، كان ينظر إلي وأنا أُخطط للمستقبل وأضع أقدارًا ليس لا أي أساس من الصحة ويقهقه، يقهقه بقسوة، قهقه تسري بخبث إلى قلوب كل من يسمعها ويجعلهم يرتعشون من الخوف، لقد أرهقني التفكير، عدو حياتي اللدود؛ لهذا قررت أن أُشغل نفسي بحزم أغراضي، في محاولة مني لصب كل تفكيري بهم.

انتهيت من حزم أغراضي، أغلقت الحقائب، وتوجهت نحو الشرفة، أودع هذا المشهد الذي لن أراه مجددًا، أودع تلك البيوت العريقة ذات الطراز القديم، أودع الأشخاص العابرين بالشارع الذين اعتادوا على العبور من هنا كل يوم،

أودع بائع الجرائد المتجول هنا وهناك، أودع تلك السماء وتلك النجوم التي أقسم أنني لن أرى مثلها في أي بقاع الأرض، أودع حياتي القديمة وحياتي الحالية، أودع ذكرياتي، أودع نفسي. .